بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ثمة سؤال يطرح نفسه في البداية لِمَ ندرس شخصية ظهرت في الماضي منذ حوالي ألف وأربعمائة عام؟ هل نحن بحاجة إلى شخصية عاشت الدين ولم تعش الدنيا؟ هل نحن بحاجة إلى شخصية كانت مهزومة على الصعيد السياسي؟ أليس من الأفضل أن نهتم بأولئك المعاصرين لنا؟ ألسنا بحاجة إلى ما يصنع حداثتنا، ولا يعود بنا القهقرى، كي نصبح فاعلين في زمنا، فلا نكون عالة على الآخر الغربي أو التراثي؟

هناك أمر يلمسه كل مثقف حقيقي وهو أن المعاصرة أو الحداثة، في مجال الثقافة، أي المجال الحقيقي لتكوّين روح الإنسان، لا علاقة لها بالعصر الحديث، إذ ثمة قيم أصيلة خالدة يحتاجها الإنسان في أي زمان وأي مكان، كي تجعل حياته أفضل؟ أليست قيم الإيمان بالله تعالى الذي يتجسد سلوكاً وعلماً هو ما نحتاجه اليوم؟ ألسنا أحوج ما نكون اليوم لهذا الرقي الأخلاقي لذي جسّده لنا الإمام (العدل، المحبة، الإخلاص في القول والعمل، والسمو والعطاء...) تجتمع هذه الصفات في كلمة التقى لهذا لقبّه الرسول (ص) بـ إمام المتقين يكفي أن نشير إلى أنه لم يبخل بعلمه حتى على أعدائه، فقد كان معاوية يسأله فلا يجد ضيراً في إجابته رغم أنه كان عدوه الذي قاتله بالسيف!

ولم يكن الإمام (عليه السلام) رجل حرب يحل خلافاته بحد السيف، كما يصوّره بعض أعدائه، إذ أعلى شأن الحوار على السيف مع كل من يخالفه الرأي! ولكن حين لا يفلح الحوار ويصرّ الآخر على العدوان والظلم، يأتي السيف ليحق الحقّ ويهدم الباطل، خاف الكثيرون من صلابته في الدين لذلك لم يتركوا له الفرصة ليؤسس دولة إسلامية كما يريد، فقد كثر المتمردون أثناء خلافته، أولئك الذين ابتعدوا عن روح الإسلام، وجعلوا المال سلطانهم، أو استجابوا للأنانية والعصبية التي مازلنا نعاني منها إلى اليوم!

صحيح أن الإمام (عليه السلام) عانى أثناء خلافته من الحروب والفتن التي نازعته السلطة (حرب الجمل، حرب صفين، الحرب مع الخوارج) رغم ذلك حاول أن يقيم أسس حكومة مدنية قوامها النبل الإسلامي، فكان سبب فشله ليس الضعف، وإنما إعلاء شأن القيم الرفيعة التي لا تصح حياة الأمم إلا بها (الحق والصدق والخير والمساواة...) والتي

تلقى كثيرا من المقاومة لأنها تحارب ذلك النزوع الأناني المتأصل في أعماق الإنسان، ولعل أحد أسباب معاناته أنه لم يلجأ إلى تلك القيم التي تديم سلطته وتهدم روحه (المكر والخديعة والنفاق والشر...) وبذلك انتصر للروح التي تؤسس للدين والحضارة معا، فلم يلجأ من أجل الحفاظ على كرسي الخلافة إلى المهادنة أو الخداع أو قبول الباطل!

لهذا كله كان أحمد بن حنبل يقول ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب.(١)

لِمَ نهتم بدراسة شعر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؟

ولعل من أهم ما يميز شخصية الإمام علي (عليه السلام) أنها شخصية فارس جمع الفصاحة والبيان والشجاعة والحكمة، فقد كان حامل لواء الإسلام حتى انتشر بعلمه وسيفه، كما كان حامل لواء العربية حتى ليقال إنه هو الذي أوحى لأبي الأسود الدؤلي بعلم النحو، ليحافظ على صحة اللغة العربية في زمن اختلط به العرب مع الأمم الأخرى وبدأ الضعف يتسلل إليها.

من هنا نستطيع القول بأن الأدب (بشعره ونثره) سمة أساسية من سمات شخصيته، إذ ساعده على تقديم معاناته في الحياة وحكمته فيها، لهذا بدا لنا أدبه مقويا للروح، يمدنا بالعزيمة في مواجهة أعباء الحياة والاستمرار في العطاء رغم الجروح والنكبات، وبذلك عايشنا كيف يستطيع الإنسان المؤمن قهر ألمه وإحباطه، خاصة حين يجتمع الإيمان بالعلم، ويتجسد بالزهد وحبّ الخير.

ألسنا بحاجة إلى هذه القدوة اليوم، كي نتمثلها والأجيال الجديدة، في زمن انهارت فيها القيم، وزاغت الأبصار والعقول، فتاهت منا القدوة الصالحة، حتى شكّلت التفاهة والابتذال والأنانية قدوة للأجيال، وهي معذورة في ذلك لأنها لم تجد أمامها سواها!

من هنا بات أدب الإمام (شعره ونثره) صورة للإيمان الفاعل الذي يجمع عبر الكلمة الصادقة الدين والدنيا، فنعايش فيها المعاناة والرقي الأخلاقي الذي يتجسد أمامنا حيا في مقاومة الباطل، عندئذ تستطيع الأجيال مقاومة الزيف والخديعة وضياع القيم، فتجعل الإيمان والعلم والخلق الرفيع رائدها في الحياة، مترسمة خطى كلمات الإمام (عليه السلام) وأفعاله.

وبذلك يتم ربط الماضي بالحاضر، فنحيي مثلا عليا نحن اليوم أحوج ما نكون إليها، فهي التي تشكل خصوصية شخصيتنا وأصالتنا.

هنا نتساءل: ألا يشكل الأدب، لغة الروح، إحدى الدعائم الأساسية المرشحة لربط حاضرنا بماضينا، خاصة ذلك الأدب الذي يستطيع أن يجسّد لنا قيما أصيلة تغني الوجدان، وترقى بالروح، وتوّحد الأمة، بمثل هذا الأدب تسكن النفس، وتندفع نحو الإيمان الذي ينهض بالحياة الإنسانية من الداخل، فيعكس تطورا حقيقيا للأمة إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما يقول الله تعالى في (سورة الرعد آية رقم ١١)

من هنا ضرورة أن نستلهم أدب الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وفكره، خاصة أنه تربى في حضن الإسلام في بيت رسول الله (ص) فنتعلم كيف يتجلى الإسلام حضارة وانفتاحا على الآخر، ونعايش الإيمان وقد وقر في القلب وصدّقه العمل.

إننا نعتقد أننا بمثل هذه العودة إلى أدب وفكر الإمام (عليه السلام) وغيره من الشخصيات الإسلامية، التي صدقت ما عاهدت الله عليه، يمكن أن يتجلى لنا الإسلام بأروع صورة في زمن يسعى الكثيرون إلى تشويه!

إذاً يمكننا القول بأن دراسة آثار الإمام، شعره ونثره، تشكل حاجة أساسية لنا اليوم، ومن حسن الحظ أنه وصلنا ديوان شعر رغم ما فيه من شعر منسوب إليه، وقد لاحظنا عدم اهتمام الباحثين بدراسة هذا الشعر، هل نقول: إن هذا جزء من الظلم الذي وقع على الإمام في حياته وبعد استشهاده؟

❖ ❖ ❖